مشروع تربويّ عربيّ لإعداد كتب مدرسيّة

في عام 2014 قرّر **المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات – ترشيد** العمل على تأليف سلسلة كتب مدرسيّة في التاريخ العالميّ للصفوف من السادس حتّى العاشر باللغة العربيّة، لتستخدم بصفتها أحد العناصر الأساسيّة لمنهاج التاريخ في الأكاديميّة العربيّة الدوليّة في قطر، التي أنشأتها ترشيد، ولتوفير هذه الكتب للمدارس الأخرى، وللمعلّمين، والتربويّين للإفادة منها.

المحرّك الرئيس لإنجاز هذا العمل كان الوعي بأهمّيّة مادّة التاريخ في بلورة الهويّة، وتعزيز الانتماء للمجتمع، وفهم التاريخ بصورة معمّقة ناقدة، والمساهمة في تعزيز فهم الطلبة لتاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وتاريخ المجتمعات والثقافات الأخرى ضمن رؤية إنسانيّة شاملة. وعبر نقاشات واجتماعات أوّليّة، تبعتها حلقات دراسيّة، وورشات شارك فيها مؤرّخون وتربويّون متخصّصون، وُضعت أسس العمل في هذا المشروع، وتحدّدت أهدافه، وضُبطت التصوّرات الناظمة لهذه الكتب، والمنهجيّة اللازمة لإعدادها. وبعد إعداد الكتب،

وتأليف مادّتها الرئيسة، طُرحت لنقاش وتقييم ونقد داخليّ للتثبّت من تحقيقها الغايات المرجوّة، والتقائها مع التصوّرات المؤسّسة لهذا المشروع، وصولًا إلى إقرارها، ونيلها الموافقات التحكيميّة والرسميّة.

جاء هذا المقرّر الدراسيّ ليحقّق الأهداف العامّة لتعليم التاريخ من جهة المعرفة، والمهارات المراد تطويرها لدى الطلبة، خاصّةً تلك المتعلّقة بالبحث، والاستقصاء، والتفكير الناقد، والتواصل، ومن أجل تبنّي أساليب واستراتيجيّات تعليميّة حديثة تعتمد الطالب محورًا لعمليّة التعليم والتعلّم بعيدًا عن الحفظ والتلقين. استخدم فيه العديد من المصادر المتنوّعة مثل الوثائق الأصليّة، والصور، والمتاحف، والنصب التذكاريّة، والأفلام التاريخيّة. وتضمّنت الكتب العديد من الأنشطة المرتبطة بالوحدات الدراسيّة لتعزيز التعلّم لدى الطلبة.

أشرف على المنهاج علميًّا وتربويًّا الأستاذ خليل مكاري، المستشار التربويّ للعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، المنسّق لبرامج اللغة العربيّة للناطقين بغيرها. وحكّمها علميًّا الدكتور المؤرّخ عبد الرحيم بنحادة، أستاذ التاريخ بمعهد الدوحة للدراسات العليا، عميد سابق بالمعهد، وبجامعة محمّد الخامس في الرباط، إلى جانب الأستاذ المؤرّخ جمال باروت، المحرّر العلميّ للمركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات. وراجع أنشطة المقرّر جميعها الأستاذ خالد المصريّ، رئيس قسم مادّة التاريخ ومدرّسها للمرحلة الثانويّة في الأكاديميّة العربيّة.

يعرّف الأستاذ خليل مكاري هذا المشروع بأنّه مشروع منهاج للتاريخ العالميّ باللغة العربيّة، هدفه الأوّل كتابة تاريخ عالميّ، مع بعض التركيز على التاريخ المحلّيّ، باللغة العربيّة، وهدفه الثاني أن يحاكي ذكاء الطلّاب ليتفاعلوا مع مادّة التاريخ بوصفها مادّة علميّة بلغتهم الأمّ، لا مادّة للتلقين والحفظ، مع إكسابهم المهارات النقديّة والتاريخيّة للتعبير عن آرائهم شفهيًّا وكتابيًّا.

نخصّص هذه المساحة في منهجيّات لمراجعة هذه السلسلة وعرضها، وذلك عبر مداخلتين، الأولى للفريق الذي عمل على تأليف السلسلة وإعدادها ومراجعتها، من أجل بيان أهمّيّة المشروع، ومزاياه، والإضافة التي يقدّمها من وجهة نظرهم. والثانية هي قراءة في السلسلة لمتخصّصين، ومراجعة نقديّة لها بوصفها مقرّرًا مدرسيًّا.

الصف	المؤلف	عنوان الكتاب	عدد الوحدات	عدد الدروس
السادس	منى درويش	البشريّة في مغامراتها الأولى	8	30
السابع	حور حوامدة ، عبدالحميد الطبايلي	عصر الإمبراطوريّات: التوسّع السياسيّ والتبادل الثقافيّ	8	30
الثامن	منى درويش	الحضارة الإسلاميّة	7	24
التاسع	كريمان منكو	التقارب العالميّ الكبير	7	32
العاشر	عبدالحفيظ الطبايلي	التحوّلات الكبرى والاندماج العالميّ	6	31

سلسلة كتب التاريخ مقسّمة إلى سنوات، كل سنة دراسيّة أتت في جزأين.

نظرة على سلسلة "التاريخ العامّ" التعليميّة

في الأهمّيّة والمزايا والأهداف

من أهمّ عناصر الرؤية في هذا المشروع حسب المؤرّخ الدكتور عبد الرحيم بنحادة (تحكيم علميّ) الانتقال بالدرس التاريخيّ من درس في الذاكرة إلى درس تاريخيّ بكلّ ما في الكلمة من معنًى، وتجاوز الطرائق النمطيّة المعمول بها في العديد من الكتب المدرسيّة.

ويبرز المؤرّخ جمال باروت (تحكيم علميّ) فرادة المشروع، بكون المؤسّسات التعليميّة الخاصّة دأبت على اعتماد مقرّرات جاهزة، غالبًا ما تكون بلغة أجنبيّة، أو مترجمةً منها، لا إعدادها كما جرى في سلسلة كتب التاريخ هذه. تضمّن هذا الإعداد عقد عدّة ورشات متخصّصة حول منهج الكتابة الذي سيحكم تدوين المقرّر، ونقاشات معمّقة حول وحداته، ومفرداته، والمراحل التي يغطّيها، وكان أهمَّ ما في النقاشات تحديدُ المنهج، لما لمقرّر التاريخ من دور تكوينيّ في بناء الوعي بالذات، وبتاريخ الأمّة التي تنتمي إليها، أي إنتاج تاريخ عربيّ مبنيّ على معرفة عمليّة أكاديميّة دقيقة بمراحل التاريخ العربيّ، ومجرياته، ومحطّاته الفاصلة، والأساسيّة.

يرى الأستاذ باروت أنّ المنهاج الذي وضعت المقرّرات في ضوئه يتميّز بالتكامل، والاستمراريّة حسب المرحلة الصفّيّة، والشمول؛ إذ يخرج التلميذ في نهاية الدراسة بمعرفة تاريخيّة واسعة تدفعه إلى مزيد من التعمّق في الذي تعلّمه، كما يتميّز المنهاج بانطلاقه من رؤية عربيّة للتاريخ العربيّ، واستمراريّته في تكوين الوعي بالذات، وتأثيره في الاتّجاهات السلوكيّة، ورؤية العالم والآخر.

ما يميّز هذه الكتب، بتعبير الأستاذة كريمان منكو (تأليف)، هو أنّها كتب عامّة عن تاريخ العالم، ليست تابعةً لأيّ وزارة تعليم، ولا تركّز على تاريخ بلد محدّد، كما أنّها تبتعد عن مقاربة معالجة التاريخ من منظور أوروبّيّ، وتتبنّى مقاربةً أكثر توازنًا لفهم الماضي، وأنّها ترتكز على الطالب (الطالب هو محور العمليّة التعلّميّة)، وتشمل كثيرًا من الأنشطة التي تعتمد على البحث في المصادر الخارجيّة التي تتطلّب من الطالب القراءة المعمّقة، ثمّ تقييم هذه المصادر بصورة ناقدة. وتركّز الكتب بوضوح على اكتشاف الأصل، والهدف، والقيمة، وحدود المصادر (إمكانيّات المصادر المحدودة)، بكلمات أخرى: هذه الكتب تحفّز التفكير النقديّ، وتطوّر مهارات المؤرّخ لدى الطالب، ولا تحدّده أو تفرض عليه روايةً واحدةً للتاريخ. أهمّيّة المنهاج تكمن في كونه الأوّل في العالم العربيّ الذي يتضمّن تسلسلًا عالميًّا من بداية الحياة البشريّة، ويواكب تطوّرها عبر العصور والحضارات، حسب الأستاذ خالد المصري (مراجعة الأنشطة)، وبالإضافة إلى هذا التسلسل المحكم، أضفت النشاطات الملحقة بالدروس المقرّرة جمالًا فكريًّا، وحافزًا أكاديميًّا، وأضافت مهارات التفكير التاريخيّ للطالب، فكسرت الصورة النمطيّة عن ماهيّة مادّة التاريخ، وغيّرتها.

أمّا الخاصّيّة الفريدة التي تميّز هذا المنهاج عن أيّ منهاج آخر، فهي كما تقول الأستاذة منى درويش (تأليف): تركيزه على المنطقة العربيّة بوصفها جزءًا من التاريخ الإنسانيّ العامّ ضمن سياق موضوعيّ محايد، يبتعد عن ثقافة تأطير آليّات الطلبة الفكريّة لتخدم هدفًا سياسيًّا، أو أيديولوجيًّا معيّنًا. كُتب هذا المنهاج في الأصل لهدف محدّد، هو تمكين الطلبة من تطوير مهاراتهم الفكريّة، وتطوير معارفهم التاريخيّة باستقلاليّة تحترم قدراتهم العقليّة، وكونَهم مفكّرين مستقلّين.

يلخّص الأستاذ خليل مكاري (إشراف علميّ وتربويّ)

الأهداف التي صُمّم هذا المنهاج ليحقّقها: تمكين الطالب العربيّ من المحافظة على إرثه، وتحسين لغته الأمّ وتطويرها، وتكوين فهم لأحداث تاريخيّة بطريقة منظّمة تميّز بين أنماط عامّة دون الإغراق في التفاصيل، ثمّ الحصول على المعرفة بمستوًى عالٍ منافس. وهذا يؤهّل الطلبة لمتابعة تطوير المعرفة بالتاريخ خارج نطاق المدرسة.

في المنهجيّة والموضوعات

في كتابة هذه الكتب وتأليفها، اعتمدت الحرّيّة الفكريّة بوصفها أساسًا لكتابة تاريخ يبتعد قدر الإمكان عن المقاربة الأورو- مركزيّة (Euro- Centric)، ويحلّل الأحداث المحلّيّة والعالميّة ضمن السياق العامّ للتاريخ العالميّ، حسب توصيف الأستاذ خليل مكاري. كَتَب هذه السلسلة معلّمات ومعلّمون من ذوي الخبرة الطويلة في تعليم مادّة التاريخ؛ فالنصوص ليست مكتوبةً كمجموعة أحداث أو مناسبات، ولا تركّز على تاريخ قادة، أو حروب، أو توجّهات وطنيّة محدّدة. يقول المؤرّخ باروت: تركّز هذه الكتب على العالم كوحدة واحدة، وتنظر إلى الظواهر التي كان لها تأثير على الإنسانيّة جمعاء. هذا أسلوب رياديّ في التحليل لإغناء فهمنا، وقابليّتنا للمقارنة بين الثقافات المختلفة، والأنماط العالميّة المتعدّدة التي سادت حياة الإنسان في الماضي.

يطلعنا الدكتور بنحادة على عملية الكتابة، قائلًا: وُضعتْ خطّة محتويات كلّ جزء (كتاب لصفّ)، واستُند في صياغتها إلى آخر النتائج التي انتهى إليها البحث التاريخيّ، مع الحرص على تقديم كلّ ذلك بطريقة مبسّطة تراعي مستوى المتلقّي. كما يدلّل الدكتور على ذلك بمثال، هو الطريقة التي قُدّمت بها الاكتشافات الأثريّة المتعلّقة بعصور ما قبل التاريخ. وانطلاقًا من التسليم بأنّ التاريخ ليس شيئًا مضى وانقضى، بل هو ممتدّ في ذواتنا الحاضرة، يشكّلنا بقدر ما نشكّله من خلال فهمنا له، وإدراك معنى الذات، وأبعادها الحضاريّة في سياق تاريخيّ وفق الأستاذ باروت، كان تحفيز المتعلّم على المشاركة في إنتاج المعرفة محدِّدًا رئيسًا في المنهاج. تجري هذه المشاركة

من خلال بحث المتعلّم الخاصّ الذي يعطيه المنهاج مفاتيحَه الأساسيّة للتعمّق فيه، ومعرفته معلوماتيًّا، ونقديًّا، وفرصةَ بناء استنتاجاته الخاصّة.
تشير الأستاذة كريمان منكو: عند كتابة السلسلة، راعى المؤلّفون أنّها موجّهة للطلبة العرب. لذلك، أدخلوا عناصر من التاريخ المحلّيّ والإقليميّ للبلدان العربيّة في بعض كتبها. وتستطرد: اعتمدنا على أحدث المصادر من أبحاث ودراسات عربيّة وغربيّة. وقد صُمّمت الكتب مع مراعاة تطبيقها في مدارس تعتمد برنامج البكالوريا الدوليّة في المرحلة المتوسّطة دون أن تكون مقتصرةً عليها، وبهذا فهي الكتب الوحيدة من نوعها باللغة العربيّة، بالإضافة إلى استخدام النصوص ذات التوجّه المفاهيميّ، وتضمّنها أنشطةً صفيّةً، وأسئلةً بحثيّةً تعتمد منهجيّة الاستقصاء.

"انطلاقًا من تنوّع الأنشطة وتعدّدها وتميّزها في المنهاج، فقد عُمل على تجربتها، وصقلها، وتأمّلها لتخدم المعلّم والمتعلّم إلى أقصى حدّ ممكن." حسب الأستاذ خالد المصريّ، وهو يعتقد أنّ المعلّم باستطاعته تكييف المنهاج مع أيّ منهاج آخر يجري تدريسه، أو يُعتمد من قبل مؤسّسته التعليميّة، فلا يفرض هذا المنهاج أسلوبًا واحدًا على المعلّم، أو نمطًا محدّدًا، بل يساعد المعلّم على توسعة مدارك الطلّاب، وتشكيل مفاهيمهم، وصقل مهاراتهم. وبذلك يتقدّم المعلّم، ويتميّز عن زملائه.

أمّا حول التوجّه السياسيّ، فتقول الأستاذة درويش: يتميّز المنهاج برفضه الارتكاز على أيّة دعاية سياسيّة، أو أيديولوجيّة. وعليه، يمكن استعمال المنهاج في عدّة بلدان عربيّة. وتشير إلى النقلة النوعيّة التي حقّقها هذا المشروع باستعمال محتوًى تاريخيّ يركّز على الفهم التاريخيّ المفاهيميّ، وتعزيز مهارات مختلفة مستلهمة من أدبيّات برنامج البكالوريا الدوليّة مثل: أخذ الملاحظات، والتحليل والاستنتاج، والتفكير الناقد؛ إذ يعمل الطلبة على الوصول إلى استنتاجات مختلفة حول موضوعٍ تاريخيّ، فتُقبل استنتاجاتهم كلّها ما دامت مدعّمةً بالدلائل التاريخيّة. لذلك، فإنّ الطريقة المتّبعة في المنهاج بعيدة عمّا درجت عليه الأنظمة الشموليّة في تعليم مادّة التاريخ، ما يعطي المنهاج خاصّيّةً تجعله نقلةً أو تحوّلًا في المحتوى، والمعايير المتعارف عليها في المنطقة العربيّة فيما يتعلّق بكتابة التاريخ.

في إمكانيّات الإفادة منه في المدرسة وخارجها

يُمكن إجمال عناصر الإفادة من المنهاج بالنسبة لمعلّم التاريخ في نقاط يقترحها الأستاذ خليل مكاري:

- هيكليّة السلسلة تساعد المعلّم على التخطيط لسنة أكاديميّة كاملة لكلّ صفّ، وفي كلّ كتاب لكلّ مرحلة صفّيّة، ثمّة مقدّمة عامّة توضّح حقبةً تاريخيّةً معيّنةً، ما يساعد المعلّم، ومن ثمّ الطالب، على تشكيل أفضل فهم للأحداث التاريخيّة في هذه الحقبة بالتحديد. وتشجّع المقدّمة المعلّم على جمع موادّ إضافيّة بوصفها مصادر تغطّي أحداثًا محلّيّةً، أو إقليميّةً تساعد الطالب في ربط الأحداث.

- يوفّر وجود الأنشطة المختلفة في الكتب على المعلّم وقتًا وجهدًا في تحضير الأنشطة. تغطّي الأنشطة مهارات مختلفةً في تعلّم التاريخ، واكتساب المفاهيم، ويمكنه استخدامها مع طلّابه لفائدتها في عمليّة التعلّم. ورغم أنّ تحضير هذه الأنشطة مبنيّ على نهج برنامج البكالوريا الدوليّة، فهي تناسب جميع البرامج التعليميّة في المدارس الخاصّة أو العامّة.
- في المدارس الرسميّة، وبعد تمكين الأساتذة عن طريق الورشات، يمكنهم أن يرتقوا بالطلّاب إلى مستويات عالية من التفكير الناقد، والتفكير التاريخيّ. بالإضافة إلى ذلك، مع اعتماد سلسلة التاريخ العالميّ "الوحدة التمهيديّة" لكلّ حقبة تاريخيّة، بإمكان الأساتذة في أيّ بلد عربيّ استخدامُها كإطار تاريخيّ مع إدماج أحداث التاريخ المحلّيّ لكلّ بلد ضمن السياق العامّ.

أمّا عن استخدام المنهاج في مختلف الدول العربيّة، فيقول الدكتور عبد الرحيم بنحادة: إنّ التحضير للمنهاج وصياغته لم يبقَ سجين الكرونولوجيا (الترتيب الزمنيّ)، ولا سجين مجال جغرافيّ معيّن. لذلك، يمكن أن يُتبنّى المنهاج، ليس فقط في كلّ مدارس الوطن العربيّ، بل وفي مدارس خارج هذا المجال؛ ففي هذا المنهاج نرى تاريخ العالم في حلّة مبسّطة بطريقة سلسة للغاية.

لا تقتصر الإفادة من سلسلة كتب التاريخ بوصفها منهاجًا دراسيًّا، بل ويمكن حسبانها وفق توصيف الأستاذة منى درويش "مراجعَ مهمّةً" لأيّ معلّم تاريخ أو اجتماعيّات في المنطقة العربيّة؛ إذ توفّر هذه الكتب للمعلّمين إرشادات مهمّةً في تطويع محتويات منهاجهم لتعزّز

المهارات المشار إليها في كتب المنهاج الخمسة. وتعرّض الكتب المعلّمين والطلبة إلى مهارات خاصّة بمادّة التاريخ مثل: التعامل مع مصادر المعلومات الأوّليّة والثانويّة بأنواعها، وتعزيز استعمال المصطلحات التاريخيّة، وتقدّم السياقات والمفاهيم الرئيسة وذات الصلة، ومهارات التعلّم. وهذه مناظير تجعل المنهاج مميّزًا مختلفًا. تَعرّض المعلّمين وطلبتهم في بلدان عربيّة مختلفة لإطار معرفيّ كهذا سيترك أثرًا مهمًّا في منطقتنا، حسب الأستاذة درويش.

من خلال هذا الكتب "يستطيع المعلّم تكوينَ معرفة بما أهملته المقرّرات التي يدرّسها، وإغناءَ المعرفة التي يقدّمها، والتعرّفَ أكثر على تحقيبات تاريخيّة موضوعيّة أدقّ وأوضح لمعرفة الزمن التاريخيّ وامتداده في الماضي، وتملّكَ وظيفة المقرر في تشكيل رؤية للذات والعالم مبنيّة على عمقها الحضاريّ التاريخيّ"، كما يستطيع، وهذا مهمّ جدًّا حسب تشديد الأستاذ جمال باروت، الإفادة ممّا يشتمل عليه المقرّر من مهارات تفاعليّة بين المعلّم والمتعلّم.

عند التمعّن في الأنشطة تحديدًا، يظهر تجاوز فائدتها البرامج التعليميّة المطبّقة في المدرسة، أو المنهاج المدرّس، بل يمكن الاعتماد عليها، وفق الأستاذة كاريمان منكو، والأستاذ خالد المصري، لتنفيذ أنشطة صفّيّة بحثيّة، أو لقراءات إضافيّة، أو العمل مع الطلّاب على مشاريع تعلّميّة بحثيّة.

في الحاجة إلى مقرّر التاريخ عربيًّا

بتجاوزه المركزيّةَ الأوروبّيّة في تقديم تاريخ العالم، واعتماده تاريخًا عربيًّا في قلب تاريخ العالم، وتجاوزه لمحلّيّة مناهج التاريخ في كلّ دولة عربيّة وانتقائيّتها، إلى شموليّة الرؤية العربيّة لتاريخ متشابك راسخ ما زلنا نتفاعل معه، وتوفيره أدوات نقديّة تحليليّة باللغة العربيّة ترتكز على كون الطالب محور عمليّة التعلّم، يأخذ مقرّر التاريخ العامّ موقعًا مميّزًا بين المشاريع التربويّة العربيّة، ويتجاوز حدودَه بوصفه كتبًا مدرسيّةً ليصير مرجعًا تاريخيًّا للمعلّم، والطالب، والباحث، والمهتمّ.

بذلك، تتّضح الحاجة إلى هذا المنهاج في السياق العربيّ، والثقة بأنّه "سيترك أثرًا كبيرًا في الطلبة الذين سيتعرّضون له، ويسهم في التغيير الثقافيّ طويل المدى"، كما ترى الأستاذة المؤلّفة منى درويش. وبالأخذ في الاعتبار "غياب مثيل هذه الكتب في العالم العربيّ"، حسب الأستاذة المؤلّفة كاريمان منكو، يقارب الأستاذ خالد المصريّ الكتب بوصفها فرصةً يستطيع من خلالها المعلّم والطالب العربيّ رؤية تاريخ العالم من منظور عربيّ يضاهي المناهج الأجنبيّة وينافسها. وإن أخذنا في الاعتبار المقاربة التاريخيّة، ونوعيّة السرد التاريخيّ (النصوص)، والنشاطات التفاعليّة، كما يقول الأستاذ خليل مكاري: "فهذه السلسلة توازي المقرّرات الدوليّة الأخرى، إن لم نقل تتقدّم عليها".

قراءة في سلسلة "التاريخ العامّ" التعليميّة

جمال عرفات

هنادي ديّة

ليس من السهل تقديم قراءة نقديّة لتجربة تربويّة حديثة لم تتخطَّ بضع سنوات، ولم تنتشر ليتسنّى جمع الانطباعات والملاحظات حولها، أو إجراء الدراسات والإحصاءات حول نتائجها. وعلى الرغم من أنّ سلاسل الكتب بحدّ ذاتها لا تشكّل تجارب تربويّةً، فسلسلة التاريخ العامّ الصادرة عن المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات – ترشيد، التي تستهدف المراحل الدراسيّة الممتدّة من الصفّ السادس حتّى الصفّ العاشر، تشكّل مقاربةً حديثةً في تقديم كتاب تاريخ موضوعيّ يخرج عن إطار المناهج الوطنيّة، ليلج لبّ فلسفة التاريخ وعلمه. بين أيدينا الطبعة الثانية من السلسلة، إصدار سنة 2018، لنقدّم حولها قراءةً سريعةً.

التصميم

يقارب الكتاب تعلّم التاريخ باتّباع نظام الوحدات التعلّميّة. هذه المقاربة ليست مقاربة شكليّة، أو تنظيميّة، إذ تضمّ كلّ وحدة عددًا من الدروس، لكن تعكس هذه المقاربة أيضًا منهجًا تصميميًّا ينطلق من الأهداف المرجوّة المذكورة في نهاية الوحدة، وتبنى الدروس بتناسق لتحقّق هذه الأهداف.

إنّ تصميم الوحدات يتّبع نسقًا يحاكي بناء الوحدات المقترح من قبل منهاج "البكالوريا الدوليّة"، إذ تبدأ الوحدة بجملة البحث والاستقصاء، وتعرض أسئلة المعرفة، فالأسئلة المفاهيميّة، فالنقاشيّة، كما تقدّم السياق العالميّ للموضوع، ومعايير التقييم. إنّ تصميم الوحدات ينطلق من المفهوم والسؤال، لا من المحتوى كما حال معظم كتب التاريخ؛ فالمتعلّم يبدأ رحلة تعلّم المحتوى مستكشفًا المفهوم المرجوّ متسائلًا عنه، وعندما يقدّم له المحتوى عبر صفحات الوحدة، فإنّه يقارب هذا المحتوى باحثًا عن إجابات تبني له المفهوم بناء تدريجيًّا حتّى يكتسبه. في نهاية كلّ رحلة استكشاف، خلاصة للوحدة تقدّم للمتعلّم ثبتًا بما تعلّمه، وتربط بداية الوحدة بآخرها.

الوحدة متكاملة، وهي تقدّم للمعلّم والمتعلّم رحلةً تعلّميّةً استكشافيّةً. قد يُطرح في هذا السياق سؤال: هل الكتاب مصمّم للمتعلّم أم للمعلّم؟ إذ جرت العادة أن يكون ثمّة كتاب للتلميذ يقدّم له المحتوى، وكتاب آخر للمعلّم هو دليل يعينه في عمليّة التحضير. هذا الكتاب لم يفصل بين كتاب لتلميذ وآخر لمعلّم، لأنّ الاثنين مدعوّان إلى خوض رحلة التعلّم معًا، فلا يتوقّع من المعلّم أن يتحكّم بالعمليّة التعليميّة عبر إلقاء المحتوى التاريخيّ المرتبط بالموضوع على المتعلّم، لكن يتوقّع منه أن يرافق المتعلّم في رحلة تعلّميّة في صفحات الوحدة، فيكون الميسّر لعمليّة التعلّم والاكتشاف، ولا يتوقّع من المتعلّم أن يكون متلقّيًا للمادّة التاريخيّة، بل شريكًا في عمليّة التعلّم، مدركًا الأهداف المرجوّة من كلّ وحدة، باحثًا عن إجابات أسئلة البحث والاستقصاء.

المقاربة

قد يبدو الكتاب مصمَّمًا لمنهاج البكالوريا الدوليّة، لكنّ نظرةً أعمق فيه تبيّن أنّ المقاربة التي يتّبعها تتعدّى ذلك؛ فمقاربته تحاكي منهاج البكالوريا وتستعمل مصطلحاته، وتتعدّى ذلك إلى مقاربة تخاطب مهارات القرن الواحد والعشرين _لا سيّما مهارات التعلّم_ وتسعى إلى تنميتها. تتضمّن الوحدات أنشطةً تنمّي مهارات التفكير الناقد، والبحث، والتواصل، والتعاون، وقد تجد أنّ بعضها يشير إشارةً واضحةً إلى تنمية مهارات التفكير الناقد أو التنظيم، لكنّ ما تقدّمه هذه النشاطات ينمّي حتمًا مهارات التواصل، والتعاون بصورة ضمنيّة.

إلى جانب مهارات القرن الواحد والعشرين التعلّميّة، يخاطب الكتاب مهارات الحياة. فكلّ وحدة تقدّم نشاطًا بعنوان "الخدمة والعمل". يدعو هذا النشاط المتعلّمين إلى توظيف مكتسباتهم في خدمة المجتمع، والمساهمة في تحسينه، ويربط النشاط التعلّم الذي يحدث داخل الصفّ بالعالم خارجه. لقد درسنا التاريخ، وكان الصفّ سردًا لأحداث جرت في الزمن الغابر والماضي، وكان دخول صفّ التاريخ أشبه بدخول المتحف، وسماع قصص لم ندرك وقتها علاقتها بحياتنا اليوميّة. إنّ نشاط الخدمة والعمل يقدّم فرصةً لربط تعلّم الماضي بالحاضر، والإفادة من هذ التعلّم لتحسين الحاضر.

جولة عامّة في الكتب

عناوين الكتب والدروس التفصيليّة جاذبة، تشدّ المتعلّم لاستكشاف مروحة واسعة من المعارف، فتتراكم مكتسباته المعرفيّة، والتحليليّة، والاستنتاجيّة، كما أنّها تشدّ المعلّمين أيضًا بما تحمله من معلومات، ومعطيات، وإثراء متنوّع المصادر والمراجع. يمكن لهذه العناوين أن تنال حظوة المهتمّين من القرّاء، والأهل المتابعين الباحثين عن معارف تاريخيّة جديدة. وفي هذا السياق، تشكّل عناوين الكتب عامل استقطاب معرفيّ ينفتح على اتّساعه بما تقتضي الحاجة؛ تقرأ في كتاب الحضارة الإسلاميّة للصفّ الثامن مثلًا أخبار بدايات الإسلام، وتشكيل الدولة المركزيّة، بعد أن تكون مررت في جولة على الإمبراطوريّات، أو الحضارات القائمة يومها: الهان في الصين، والرومانيّة في شرق آسيا وسواحل أوروبا المتوسّطيّة، والساسانيّين. يهيّئ لك الكتاب الأرضيّة المعرفيّة التي ستسمح لك، بوصفك قارئًا، أن تربط العناصر الحضاريّة (الاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة) في تكوين فهمك لما حصل.

من ناحية أخرى، يلعب الاعتماد على وسائل التوضيح المختلفة من الخطوط الزمنيّة وشروحاتها، والتنوّع في الرسوم والصور والمصادر، والشروحات الدائمة

للمصطلحات والتعابير والمفردات الإشكاليّة، بالإضافة إلى الأمانة البحثيّة في نشر لائحة المصادر والمراجع، وإفراد لائحة بالتعاريف دورًا أساسيًّا في تشكيل النظرة العلميّة التي تغني المضمون، وفي المساعدة في تحقيق الأهداف. أضف إلى ذلك تعدّد الأنشطة في الدرس الواحد، وهي تحفّز المتعلّمين على التنافس العلميّ في مجموعات، أو فرديًّا، ويمكن اعتمادها تقييمًا تكوينيًّا لمدى الفهم الحاصل عند المتعلّمين.

التركيز على المصادر

جرت العادة أن يجسّد منهج مادّة التاريخ سياسة "الدولة" التربويّة العامّة، القائمة على اعتماد رواية واحدة ينشأ أبناء الوطن وبناته عليها، ويجمع عليها مواطنوها. في هذا التفصيل الأساسيّ، تميّزت كتب سلسلة "التاريخ العامّ" ولم تكن منهجًا "وطنيًّا" آخر؛ إذ اعتمدت السلسلة في وحداتها الدراسيّة الروايات المتنوّعة المتعلّقة بموضوع محدّد، ما ترك للمتعلّمين أفقًا رحبًا يتنقّلون فيه بحرّيّة ليستكشفوا العالم بمهاراتهم الذاتيّة الإبداعيّة حال تلمّسهم أوّل الطريق. نرى هنا اعتماد مصادر تاريخيّة عديدة لمعرفة الخبر، لا اعتماد رواية مفروضة بلا مصدر، مصفوفة في كتاب جامد.

ويمكن أن نقرأ أمثلةً على ذلك في كتب السلسلة كافّةً؛ مثلًا في الجزء الثاني من كتاب الصفّ السادس، في درس "عصر الاستكشاف العثمانيّ" (ص 53-43)، نقع على العبارات الآتية:

"فبحسب المؤرّخ جيان كارلو كازالي، وهو خبير في الموضوع..."
"في كتاباتهم عن الإمبراطوريّة العثمانيّة في سنوات الستّينيّات والسبعينيّات من القرن السادس عشر، وصفها البرتغاليّون بأنّها مصدر خطر..."
"إلّا أنّ دراسات حديثة تشير إلى..."
"أشار كازالي إلى أنّه كان هناك سبب حقيقيّ كي يقلق البرتغاليّون..."
"يعطينا ما كتبه مراقب برتغاليّ في منتصف ستّينيّات القرن السادس عشر لمحةً عن..."

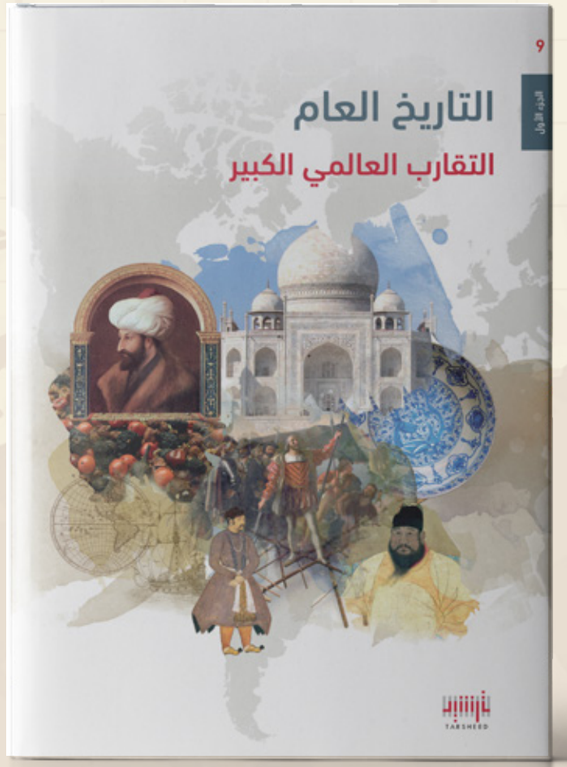

"وقد ناقش مؤلّف عثماني في عام 1625 مظاهر هذا الأفول فكتب..."
"تحدّثت المؤلّفات الجغرافيّة العربيّة والصينيّة ما قبل القرن الخامس عشر عن مخاطرات طبيعيّة..."
"أوضح عالم الاقتصاد أ. ج. فرانك"

يبدو واضحًا من الأمثلة جهد معدّي السلسلة في تركيز انتباه المتعلّمين على موضوع الوثائق، ومقارنتها، وفحصها للتدقيق فيها. لا شكّ في أنّ هذا التوجّه، بين يدي معلّم كفء، قادرٌ على تعزيز المقاربة العلميّة للتاريخ، بوصفه تجميع دراسات تتّكئ على مصادر، وآثار، وربط للمعلومات، تصوغه عين المؤرّخ، وزاوية رؤيته للأحداث.

واقع للكتاب يسبّب انزياحًا لأهداف تعليم مادّة التاريخ التقليديّة في المناهج المضبوطة بتوجّهات "وطنيّة" تضعها الوزارات؛ فالمواطن الصالح النموذجيّ لم يعد حافظ السرديّة الرسميّة للتاريخ، بل هو صاحب المنهج العلميّ، المفكّر القادر على تجميع معلوماته، والاستنتاج منها، وتكوين رأيه الخاصّ، وهذا تطوّر عظيم في الرؤية يُشكر عليه واضعو السلسلة.

لغة الكتاب واللغة العربيّة

لدى قراءة كتب السلسلة، نقرأ لغةً سليمةً سلسة لا تخلو من المصطلحات، والتعبيرات، والمفاهيم العلميّة التاريخيّة التي تركّز السلسلة على تقديمها للمتعلّمين، وترسيخها بوصفها أدوات علميّة تعينهم في تكوين فهمهم، وآرائهم.

بعيدًا عن تعلّم التاريخ، يقدّم الكتاب مادّةً شيّقةً، ومقاربةً ممتعةً يمكن توظيفها في تعلّم اللغة العربيّة؛ إذ تخاطب النصوص، والأسئلة مهارات القراءة والفهم، وتعزّزها، وتنمّيها. وقد يكون الربط بين مادّتي التاريخ واللغة العربيّة، والتعاون بين أساتذة المادّتين أمرًا شديد الفائدة. الكتاب يقدّم نصوصًا، ويسأل الطالب تحليلَها وفهمها والاستجابة لها شفهيًّا وكتابيًّا. ثمّة فرصة حقيقيّة يجب أن يتلقّفها أساتذة اللغة العربيّة، فالتعاون بين المادّتين سيعطي تلاميذ اللغة دليلًا على أهمّيّة اللغة واكتسابها في فهم الموادّ التعلّميّة الأخرى.

خاتمة

نجد أنّ سلسلة "التاريخ العامّ" بصفوفها الخمسة تتوافق وتعريف ابن خلدون لعلم التاريخ، إذ يعرفه على أنّه: "خبرٌ عن الاجتماع الإنسانيّ الذي هو عُمران العالم، وما يعرض لذلك العمران من الأحوال، مثل التوحّش والتأنّس، والعصبيّات، وأصناف التقلّبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعايش، والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العُمران من الأحوال" (ابن خلدون، 2004، ص. 125)، وذلك في مضامين السلسلة التي تناولت عُمران العالم، والتقلّبات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وتداول الدول وتألّبها، والعلوم والاختراعات، وحركة الكشوفات أو الاكتشافات التي غيّرت وجه العالم.

من الأمور الأساسيّة التي ميّزت هذه السلسلة، ربط الحدث بالمحيط الجغرافيّ، والنشاط الاقتصاديّ، والنوازع الثقافيّة. مع هذا الربط، لم يعد علم التاريخ مجرّد سرد أحداث ونزوات تمكّنت من ملك هنا أو قائد هناك، بل قُدّم بوصفه سيرورةً تتحكّم بها الدوافع الاقتصاديّة، والمنتجات، وتراكم الثروات، وحاجة الناس إلى الانتقال التي تدفعهم إلى المغامرة. إذًا، التاريخ علم يقدّم بوصفه علمًا، وهذا توجّه أساسيّ في نقل عمليّة التعليم إلى التفاعليّة، والفهم القائم على قراءة المعطيات، أي استعمال مجريات التاريخ تدريبًا ذهنيًّا يعين على قراءة الحاضر وفهمه، والتخطيط له.

هذه تجربة في التعلّم نتمنّى أن تتوسّع لتشمل مواضيع أخرى في المناهج التربويّة. إنّ هذا هو ما يضمن نقل التلاميذ إلى متعلّمين وطلّاب علم، فهؤلاء من نتّكل عليهم في أن يتولّوا مسؤوليّة مستقبلنا.

جمال عرفات
أستاذ التاريخ في التعليم الثانويّ الرسمي
لبنان

هنادي ديّة
مديرة مناهج التعليم في مدرسة الجالية الأميركيّة
لبنان